الدين والتاريخ والسَّياسة .. إشكالية أم تعايش ..؟
قراءة في كتاب ... " كيف صنعنا القرن العشرين"

د. عباس عبد الحليم عباس*

في تقديمه لكتاب روجيه جارودي " **الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية"** يقول محمد حسنين هيكل: ومن الغريب أنني رأيت هذا الرجل الذي تجاوز الخامسة والثمانين ليس فقط مستعداً للخطر ، وإنما مستمتعاً به ، وذلك من صفات الشجاعة، فعندما تقع مواجهة للخطر مع المعرفة به ، فإنّ الأمر يختلف عن الواقع فيه بالغفلة عنه " [1] .

عُرف جارودي بقراءاته النقدية العميقة للحضارة الغربية في جوانبها المختلفة، وربما كانت محاكمته الأخيرة في فرنسا بتحريض من القوى الصهيونية العالمية جرّاء نشره للكتاب المذكور قد زادته شهرة فوق شهرته . وفي الحديث عن شجاعة كاتب غربي يواجه قوة عالمية أخطبوطية ليست بالهينة. يشير الأستاذ نصر الدين البحرة إلى أن كتاب جارودي "**فلسطين أرض الرسالات** "عبارة عن صرخة في وجه العالم كي يستيقظ من سباته ويواجه مشروعاً صهيونياً خطيراً لتزوير تاريخ المنطقة وجغرافيتها بكل صلف ووقاحة [2].

ولعل كتاب " **كيف صنعنا القرن العشرين** " [3] بمثابة الاستمرار في نهج النقد الحضاري الذي يكشف الزيف أو التنوير في حضارة القرن العشرين من خلال تتبع عميق لمعطيات علمية حديثة تتكيء على أسس معرفية جيدَّة بعلوم الاقتصاد والاجتماع والسَّياسة الدولية ، بالإضافة إلى منهجية بحثية سليمة لا تعلن النتائج قبل استقراء الواقع من كل الجهات .

بدأ جارودي الفصل الأول "مسيرة قرن وحياة " بتوضيح نوع المشكلة الكبرى التي تحياها الشعوب اليوم ، وهي مشكلة دينية وسياسية معاً ، وعليه فإنّ اختيار المرء لمعسكر دون غيره هو ما يقرّر حياته على هذا الأساس . لقد اختار جارودي الماركسية وتركها ، وكذلك المسيحية واتجه نحو الإسلام بحثاً عن " إحياء الأبعاد الداخلية والسمو والحب " [1] لأنّ الماركسية فشلت ، والرأسمالية كذلك .. وقد تأكَّد ذلك كله عبر خبرة طويلة بالحياة ، وحوارات عميقة مع سادة الفن والسياسة والأدب والفلسفة .. توصل من خلالها إلى قاع التاريخ ، وانضمامها إلى دائرة **الفكر المتفرّد** المنبثق عن الفكر الأوروبي **والعولمة** " أي قبول الهيمنة الأمريكية وفكرتها عن وحدانية السوق " كما توصل إلى أسباب اضمحلال الغرب ، وأنّ الدول غير الغربية تمتلك إمكانات وجود أساليب حياة مختلفة برغم ضغوط الاستعمار .

---

* أستاذ جامعي سوداني مقيم بالسعودية .

[1] روجيه جار ودي ، الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية ، تقديم : محمد حسنين هيكل ، دار الشروق ، القاهرة – بيروت ، ط2 ، 1998م ، ص 11.

[2] انظر مقال ناصر الدين البحرة ، غارودي والصهيونية واليهود ، مجلة المعرفة السورية ، س 38 ، ع 436 ، يناير 2000.م.

[3] صدرت طبعته العربية الأولى عن دار الشروق ، القاهرة ، 2000م .

[1] نفسه ، ص 7–8.

لقد درس جارودي السَّياسة و التاريخ وعلم الأخلاق واللاهوت ليصل إلى أنّ " الله تعالى - كما بيَّن القرآن - لا يتوقف عن الخلق وإعادة الخلق ، وأنه أودع لدى الإنسان مهمة أنه خليفة في الأرض من أجل أن يكمل خلقه " وهذه النتيجة التي يقررها جارودي ليست مجرد تعاطف مع الترعة الدينية بقدر ما هي رغبة أساسية لصدم القوى العالمية التي صارت تفهم حركة الحياة والتاريخ فهماً مغلوطاً بكل المعايير ، فالعولمة التي تفرضها الولايات المتحدة لا تعني بالضرورة أنّ منطق الحياة والتاريخ قد تعطَّل .

وتحت عنوان "حضارة الغرب حادثة" يبدأ الفصل الثاني بافتراض عدة انفصالات وتغيّرات فكرية وحضارية منذ أرسطو إلى النهضة التي ولدت على يديها الرأسمالية والاستعمار في وقت واحد وراء قناع التجديد الفلسفي ، وتحت تأثر أوربا بقناعاتها الخاصة بأنها مركز العالم ، و بأنها وحدها القادرة على وضع القيم؛ لأنها تدّعي لنفسها الاكتشافات العلمية والتكنيكية في سائر أنحاء العالم . من هنا بدأت مشكلة " عبادة المال" ومشكلة العلاقة بين الذين يملكون والذين لا يملكون، استناداً إلى " أن أسطورة النهضة الأوربية والتي تعني مولد وحدانية السوق وعبادة المال ، وبداية انقسام العالم من خلال النهب والاستعمار ، وتزايد القطبية حتي في أوروبا .. هذه الأسطورة تخفي وراءها اضمحلال الإنسان، وهو تحلل الرغبة الجماعية من أجل الفرد ، وهو التناقض المتزايد بين ثراء المساكن الخاصة وتفسخ المعابد .. مولد الذئاب وهيمنة الذهب " [1].

ومن خلال قراءة التاريخ الاقتصادي للعالم ، من آدم سميث إلى وحدانية السوق ، تبيّن لجارودي أن النظام الاقتصادي القائم على الربا ومفهوم السوق " لا يفرّق بين الإنسان والحيوان حيث أن كليهما لا يحركه إلا المصلحة والغريزة لتحقيق اللذة أوالخوف من الألم " وبقراءته للفلسفة الفرنسية المادية الغربية المستمدة من ديكارت ، تلك التي زرعت النضال ضد الدين والميتافيزيقا لصالح تطور العلوم والطبيعة ؛ ومن ثم التحول إلى وهمين فلسفيين هما : الوهم العلمي الذي يفرض قوانينه على الطبيعة ؛ والوهم العقدي، فالوهم الأول جاء بأثر ديكارت وشهوة " أن نصبح أسياد الطبيعة وملاكها " هذا الهدف تمّ التوصل إليه بجدارة عن طريق العلوم والتكنيك الذي أعطانا القدرة على تدمير تلك الطبيعة ، والقوى النووية تمتلك اليوم مخزوناً يماثل نحو مليون قنبلة من قنابل هيروشيما ، أي الإمكانية لتدمير 70 مليار إنسان ، وهو ما يعني القدرة على محو أي علامة للحياة على وجه الأرض ، ومن جهة أخرى فإن انتحار الكون ببط ء أصبح مسألة مؤكدة ، فتدمير طبقة الأوزون بسبب التنافس الصناعي يهدد بكوارث رهيبة ناجمة عن زيادة درجة الحرارة، و وذوبان جليد القطبين بشكل يكفي لإغراق المدن الساحلية ، كل ذلك نتيجة الدور المدمرالذي تقوم به السوق ، دع عنك مذابح الغابات والبحار وثروتها وتدمير طاقات البترول والمياه والأرض والهواء .

أما الوهم الآخر فقد بدا أكثر وضوحاً في الفلسفة الألمانية ، حيث آمن عمالقة الفكر الأوروبي أمثال جوته وهيجل " بأنّ الإنسان يمكن أن يحل محل الله في حكم العالم". إذن، هذا ما جناه عصر النهضة في الفلسفة الأوربية حسب رأي جارودي .

---

[1] نفسه ص 44 – 45.

أما صورة الوضع الفكري والواقع الاجتماعي بعد الحربين العالميتين فقد رسمتها ولادة قوة جديدة هي الولايات المتحدة التي عدّت الحرب مسألة اقتصادية لم يسبق لها مثيل إلى حد أنها حوّلتها قوة عظمى ، واستطاعت فرض برنامج مارشال ومن ثم معاهدة ماسترخت التي تعني برأي جارودي : إخضاع أوربا للقوانين الأمريكية ، وفي الثلث الأخير من القرن ربحت أمريكا الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي الذي خارت قواه من تحمُّل الحرب مع هتلر ، ومع بدء زعمائه بتبني منهج التنمية الغربي قام مستشارو يلتسين بتطبيق الرأسمالية التي أدّت إلى تراكم الثراء عند قطب واحد من المجتمع والبؤس عند الآخر، لأنّ الرأسمالية بتطبيقاتها الأمريكية وقيادتها للنظام الغربي تكلّف العالم عدد موتى يماثل هيروشيما مرة واحدة كل يومين .

لقد قادت الولايات المتحدة عصراً جديداً من تمزق الكون من المحيط الهادي إلى الأورال من أجل استمرار هيمنة الشمال على الجنوب ، فكانت **حرب الخليج** هي البروفة الأولى التي كان هدفها الحقيقي تدمير قوة العراق ، الدولة الوحيدة من دول العالم الثالث التي قد تمتلك الوسيلة لمنع الغرب وإسرائيل من تحقيق أهداف الهيمنة على الشرق الأوسط، ويرى جارودي أنّ هذه الحرب كان قد أعد لها منذ ثلث قرن " منذ مشروع تأميم البترول الذي قدمه مصدّق في إيران ". إننا نعيش مرة أخرى مرحلة تعفن التاريخ ، تلك التي تتميز بالسيطرة التكنيكية العسكرية القاسية لإمبراطورية لا تدعو لأي مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للحياة والتاريخ .

وهذه هي أبرز مقاتل النظام الرأسمالي العالمي الجديد الذي تكشفت عوراته ، وازدادت سوءاً بعد ما افتضحت علاقته مع إسرائيل - كما يرى جارودي - وهي علاقة ممثلة بوحدة جذور ووحدة أهداف واستمرارية كهنوتية وسياسة في رؤيتيهما للعالم . وقد استخدم بعض المؤرخين اليهود والأمريكان الإنجيل استخداماً سياسياً ، فأثمر ذلك إعلان كارتر في الكنيست الإسرائيلي التشابه بين شعبي أمريكا وإسرائيل، وإنهما يتقاسمان إرث الإنجيل ، وأن " إقامة دولة إسرائيل هو تحقيق للنبوءة الدينية "تلك التي تمتد حتى جذور الفكر المسيحي عند مارتن لوثر ، وتكشف بالتالي الأسطورة الصهيونية التي هدفت إلي أن تستبدل برب إسرائيل " دولة إسرائيل " وذلك لخدمة تغطية سياسية قومية استعمارية لأرض مغتصبة هي أرض فلسطين ، ولشعبها الذي تعرض لكل أنواع التعذيب والتنكيل لتحقيق أهداف تلك الأسطورة ولتحقيق التحالف بين اليهودية والمسيحية ضد التحالف الإسلامي - على حد تعبير هاتنغتون مفكر وزارة الدفاع الأمريكية " البنتاغون"وهي نفسها أفكار كثيرين من ذوي النفوس في أعلى المناصب الأمريكية من الصهاينة ." إن التاريخ الحالي لفلسطين ، وتبني العالم للصهيونية السياسية التي قادت الدول الغربية ، وفي المقدمة زعيمتهم الولايات المتحدة إلى مساندتهم بلا شروط وبلا حدود للغزو الصهيوني السياسي في فلسطين ، وللابتزاز ، وللسلب والنهب ، وللمذابح استخدمتها الدولة الصهيونية الإسرائيلية لممارسة هيمنتها الاستعمارية على البلاد ، ولعدوانها على الشرق الأوسط ، ولاحتقارها للقوانين الدولية ، وقرارات الأمم المتحدة ، وقبول تلك السياسة من جانب الدول الغربية - وهو قبول يتضمن اتفاقاً - كل ذلك لن يكون مفهوماً إن لم نعد إلى الأصول التاريخية إلى الأسطورة الصهيونية التي شكلت عقلية الشعوب الغربية .

وبعد هذه الإدانة الواضحة للغرب المسيطر عليه من قبل الصهيونية العالمية ، ينتقد المؤلف نزعة الحرب والعداء في الأنظمة الغربية ، تلك التي تعود جذورها إلى التركيز على النزعة الذاتية عند الفلاسفة اليونان بعيداً عن فلسفة العقل .. واستمرت بالتطور لتصل إلى التركيز على الزيادة الكمية للوسائل ونسيان البحث عن الأهداف الحقيقية للوجود الإنساني"

وهنا يحاول جارودي التركيز علي فكرة وحدة الأديان كخلاص وحل لإشكالية العلاقة بين الغرب والشرق ، وهي فكرة تحتاج إلى مناقشات طويلة لا يتحملها السياق الحالي ".

وإذا كان الأمل مفقوداً في إعادة بناء ثقافة الغرب وحضارته أوعودة وعيه ، فإنّ جارودي يعوَّل كثيراً على الصحوة الآسيوية من خلال جسر أوربي آسيوي مروراً بأفريقيا لإيجاد وحدة سلمية متآلفة بعيداً عن غول العولمة " **التي يعرفها روجيه بالتعبير الخفي لطموحات الإمبريالية للهيمنة على العالم**"، ولا ينسى المؤلف دور كل من الصين وإيران وتركيا في دعم كل مشروع يهدف إلى تنمية أنفسها ، ودول أخرى على أسس الشراكة والتعاون وليس الاستغلال الاستعماري البغيض ، والرضوخ لأوامر البنك الدولي الخاضع تماماً لتعليمات الولايات المتحدة والمستعمرين السابقين .

كما يرى جارودى أنّ أمريكا اللاتينية بحاجة إلى مشروع مماثل للتخلص من ذلك الاستغلال المجحف ، وهذا يعني قناعة المؤلف التامة بأنّ التنمية الاقتصادية هي الدعامة الأولى التي تجعل المجتمعات قادرة على الحفاظ على إنسانيتها وتاريخها وفكرها ودينها ، بعيداً عن نظرية الاستغلال التي زرعها النظام الاستعماري الرأسمالي ، وأسلوبه في التكنيك والإنتاج الذي أسفر عن خسائر جمة من وجهة نظر عدم التوازن البيئي والبؤس الذي يعيش فيه أعداد كبيرة من البشر ، وأدق أمثلة على هذا التدمير للتوازن الطبيعي هو تدمير الغابات الأمازونية أو الإندونيسية ، أو استغلال إفريقيا مما سمح للصحراء الكبرى أن تتوسع بضعة كيلو مترات سنوياً ، هذا إلى جانب التدمير الثقافي والاجتماعي الذي ستحدثه **العولمة** ، الوريث الشرعي للنظام السياسي والاقتصادي الغربي ، الذي رسمت ملامحه إثر فرض الصهيونية العالمية سياسات بعيدة المدى على المشروع المادي المطبق من قبل نخبة النظام الرأسمالي الغربي الحديث .